لبنان 03 | بين لبناننا نحن ولبنانهم هم!

مالك أبو حمدان



النّظام اللّبناني الطّائفي لم ينجحْ، لا قبل الطّائف ولا بعده. الكِيان اللّبنـاني ككـلّ في أزمة وجوديّـة متجـدّدة. أمّـا الأطبّـاء المعـالِجون فـأغلبهم من المتسـبّبين - غـير ذوي الكفـاءة - بهـذه الكارثـة. وخلـف حفلات الخلاف والتّسـويات اليوميّـة والأسـبوعيّة والشّهريّة بينهم.. جميعهم يعلمُ جيّدا، برأيي، أنّ البلد أمام خيارَين لا ثالث لهما، إذ لم تعُد تنفع "الوسَطيّة" (ولو كانت "ميقاتيّة") مع الحالة اللّبنانيّة. الأوّل، ويلزمه شـجاعة ورجال دولة، هو الذّهاب فوراً باتّجاه دولة المواطَنة العصريّة، الواحِـدة واللّا-طائفيّـة. أمّا الثـاني فهـو الأقـل شـجاعةً وحكمـةً؛ وإن رفضـناه على المسـتوى المبـدئي فقـد تفرضه الطّوائف ولو بأساليب مُلتويـة ومموّهـة. هـذا الخيـار الثّـاني – المـرجّح تبنّيـه ضمن أي عمليّة تسوية معمّمة قادمة – هـو الـذهاب باتّجـاه نـوعٍ من أنـواع التّقسـيم و/أو الفَدرلـة (الظّاهريّـة أو الباطنيّـة). إنّـه الخيـار الضـمني لأكـثر زعمـاء الطّوائـف، ولكنّهم حاليّا في حالة "تغنّج" على بعضهم البعض بانتظار الأضواء الخضراء الإقليميّة والدّوليّـة. هـذا الاتجـاه هـو الـذي سـيجرّوننا معهم إليـه، على الأرجح، مهمـا تعـددّت التّسميات واختلفت الأشكال المُعلَنة. هنا برأيي يكمن جوهر الأزمـة اللّبنانيّـة الرّاهنـة وفي العُمق: كل ما عدا ذلك هو تمويه وخـداع وتضـييع وقت للجميـع من قِبـل طبقـةٍ أصبحت مملّةً ومملّةً جدّاً.. وفي جميع الأحوال فهذا الواقع يفرضه، كما أشرنا، مـوت النّظام الحالي، وجنونُ أيّ تفكير في إعادة إحياء هذه الجثّة الهامدة (إلّا إذا أرادوا أن نعيش مجدّداً فيلماً من أفلام "الزومبي".. وهـذا واردٌ عنـد البعض لكن ليس – بـرأيي الخاص – عند اللّاعبين الأساسيّين داخـل البلـد وخارجـه). سـيذهبون بنـا نحـو الخيـار الثّـاني المُلتَـوِي على الأرجح، لأنّهم لن يتجـرّؤوا على البَـوح بالتّقسـيم العلـني أو بالفدرَلـة العلنيّـة المباشـرة.. وهم عـاجزون – بـأغلبيّتهم – عن التّضـحية المتسـامية بهدف تحقيق الخيار الأوّل؛ ولا يستطيعون طبعاً البقاء ضمن خيـار "الجثّـة-الزّومـبي" الرّاهنة. خياري الشخصـي كمـواطن لبنـاني هـو الدّولـة الموحَّدة الواحِـدة المركزيّـة، دولـة المواطنـة العصـريّة اللّا-طائفيّـة والقائمـة على أسـاس المسـاواة بين جميـع المواطنين. هذا ما أفهمه في حدود معرفتي بالأمور الدّستوريّة. أنا أؤمن قلبيّاً بوحدة هـذا الشّـعب بـرغم تعـدّد طوائفـه وثقافاتـه، وأؤمن أيضـا بحاجتنـا – الموضـوعيّة لا العاطفيّة فقط – إلى أن نكون موحَّدين ضمن كِيان واحد "أنا أبحث عن رجل دولة!" لا رَيبَ في أنّ لبنانَ ككِيـان قـد اقـتربَ من مفـترق طُـرقٍ وجـوديّ وتـاريخيّ في مـا يخصّ مستقبَلَه ونظامَه. يتوجّب علينا مقاربة الموضوع بصراحة "وبلا كفـوف".. على الأرجح، هناك من يبالغ في اختلاق المشـاكل والتّسـويات الآنيّـة، عـداكَ عن الضّـجيج والتأجيل المُمَنهَجَين، هرباً من البوح بالسّـرّ، أو بسـرّ الأسـرار: علينـا أن نتحـدّث عن مستقبل لبنان ككِيان وكنِظام.. و"بلا كفوف". هل هناك أهمّ من ذلـك حقّـاً، بعـد كـلّ الذي حدث ولا يزال يحدث؟ والأدق: هل هناك نساء ورجـال سياسـيّون وحزبيّـون هم

من الشّجاعة بما يكفي للبوَح بهذا السّرّ ولمحاولة إيجاد الحلول، بصراحة، وبلا خــداع وأساليب ملتوية؟ بناء الأوطان والدّول يلزمـه "رجـالٌ" (لا بمعـنى الفحولـة الجنسـيّة طبعاً ولا بمعنى التّشبيح المتخلِّف والتّعدّي على كرامـات النّـاس، بـل بمعـنى "رجـال دولة" حصراً). وأتخيّلُ ديوجينوس الإغريقي (ت. صوب ٣٢٧ ق.م.) يتجـوّل بمصـباحه في وضح النّهار، صارخاً بين هؤلاء: "أنـا أبحثُ عن رَجـل.. دَولـة!". لبنـان الـذي نحبُّه ونريدُه لستُ خبيراً دستوريّا، ولكنّ خياري الشّخصي كمـواطن لبنـاني – رجـائي لهـذا البلد – هو الدّولة الموحَّدة الواحِدة المركزيّـة، دولـة المواطنـة العصـريّة اللّا-طائفيّـة والقائمـة على أسـاس المسـاواة بين جميـع المواطـنين. هـذا مـا أفهمـه في حـدود معرفتي بالأمور الدّستوريّة، وهذا ما أرجوه لوطني بكلّ صدق. أنا أؤمن قلبيّـاً بوحـدة هـذا الشّـعب بـرغم تعـدّد طوائفـه وثقافاتـه، وأؤمن أيضـا بحاجتنـا – الموضـوعيّة لا العاطفيّة فقط – إلى أن نكون موحَّدين ضمن كِيان واحـد. مصـلحتنا الموضـوعيّة هي في أن نعيشَ سويّا، وفي أن نستغلّ طاقاتنا البشريّة والمعنويّة والمادّيّة الأخرى. بين الوحدة وبين التّقسيم، الموقف الرّوحي المتعالي المبدئي يميـلُ إلى: الوحـدة طبعـاً. حيث هناك وحدة فهنـاك ارتقـاء، وحيث هنـاك تفرقـة وتضـادّ فهنـاك هبـوط. هبوطنـا الوجودي كان من عالم الوحدة إلى عالم الكثرة، وارتقاؤنا الـرّوحي هـو بـالعودة إلى الوحدة في جميع أمورنا كبشر. الوحدة تعني تقبّل الآخـر بـرغم اختلافـه عنّـا، وتعـني المحبّة غير المشـروطة (أو السـعي إليهـا). مـا هي رسـالة المسـيح ورسـالة محمـدّ (عليهمــا أفضــل السّــلام) إن لم تكن هــذه (التّوحيــد بكــل معانيــه، والمحبّــة غــير المشروطة)؟ بالمناسبة، ما هو عيد المسيح إن لم يكن عيد المحبّة غير المشـروطة، المحبّة الإلهيّة؟ إذن، فالخيار مبدئيٌّ وعمليٌّ معاً: الوحدة خير من التّفرقـة والتّقسـيم بكلّ أشكالهما. ودولة المواطنـة والمسـاواة هي أفضـل خيـار يمكن تصـوّره في هـذا العصر: روحيّاً وأخلاقيّاً وعلميّاً وبراغماتيّاً. الدّولة الطّائفيّة هي دولة رجعيّـة. الطّوائـف هي مصطَنع هدفه إخفاء الـدّين، تنحيتـه، تبديلـه بتصـوّرات جامـدة ومصـطَنعات غـير حقيقيّة هدفها الأخير هو حكم بعض رجال السّياسة والمال والدّين. الطّائفيّ لا يعرف – في الحقيقة – لا روحانيّاتٍ ولا ديناً ولا أخلاقاً. هـو يعبـد صـورة وأسـماء سـمّاها هـو وآباؤه، ما أنزل الله بها من سلطان. الله هو الوجـود الحـقّ والحيّ: لا يمكن اختزالـه بتصوّر ذهني وعقائدي دون آخر، ولا يمكن حصـره بمفهـوم أو باسـم.. فسـبحانَ ربِّك ربِّ العزّة عمّا يصِف الطّائفيّون. انتهى، فلا تضيعوا وقتنا: لعبة الطّائفيّة ليسـت لعبـة الله، بل لعبة أبي الحجاب الأكبر والتّغرير الأخطر، أي لعبة الشّيطان (أو: "لوسيفير" أبي الصّدّ والحُجُب). الله يدعو إلى الوحـدة والمحبّـة، والشّـيطان يـدعو إلى التّفرقـة والتّضاد. لا ريبَ في أنّ الطّائفيّة من أعمال الشّيطان الخبيثـة، فيـا ليتَ أهـل أرضـي يجتنبونها لعلّهم يرشدون. لا أتخيّل نفسي في "لبنان" لا يتضمّن الأرز وبشرّي وإهدن وطرابلس وزحلة وبعلبك وصيدا وجبل عامل والبقـاع والشّـوف وبـيروت.. هـذه كلّهـا

أرضي كما هي أرض كلّ مواطن لبناني. لقد نشر "لوسيفِر" جنوده في كلّ هذه المناطق ليمنَع الوحدة. هذا الواقع الشّيطاني أمامنا لكنّ أغلبنا لا يراه لغشاوة في قلبه (وفي عينيه أيضاً)! هذا لبنان الذي عشنا ونعيش فيه، ولم يُقنعْني جنود الشّيطان بأنّي كشيعي المولِد مختلفٌ عن غيري الماروني أو السنّي أو الدرزي أو الكاثوليكي أو.. هذا هراء وكُفر! الكُفر الأخلاقي شرّ من الكُفر الشّرعي: أليس الأمر كذلك يا أيّها الشّيخ الأكبر عمانوئيل كانط؟ "التّصوّف إذا لم يعمّ مكارم الأخلاق لا يعوّل عليه": أليس هذا قول الشيخ الأكبر محي الدّين ابن عربي أيضاً؟ انتهى، فلا تضيعوا وقتنا: لعبة الطّائفيّة ليست لعبة الله، بل لعبة أبي الحجاب الأكبر والتّغرير الأخطر، أي لعبة الشّيطان (أو: "لوسيفير" أبي الضّدّ والحُجُب). الله يدعو إلى الوحدة والمحبّة، والشّيطان يدعو إلى التّفرقة والتّضاد. لا ريبَ في أنّ الطّائفيّة من أعمال الشّيطان الخبيثة، فيا ليتَ أهل أرضي يجتنبونها لعلّهم يرشدون تقسيمُنا والإصرار على ذلك هو كُفرٌ بالمعنى الأخلاقي. أرى ذلك بالمشاهدة العينيّة كلّما أمرّ بمدينة زحلة ليلاً وأنا عائد من قريتي "حزّرتا" على طريق بيروت-ترشيش-البقاع: روحانيّة زحلة ليلاً من روحانيّة ابتسامة السّيّد موسى الصّدر. وجه هذا الأخير بالمناسبة يشبه وجهَ لبنان: يجمع المعالم الإسلاميّة والمسيحيّة والعربيّة والفارسيّة – وحتّى الغربيّة – معاً وبشكل ساحر. الخيار الصّحيح بالنّسبة إليَّ شخصيّا، إذن: هو الذّهاب الفوري نحو دولة المواطنة العصريّة. قد يكون ذلك بالتّدرّج وعلى مراحل، لكنّ هذا هو الطّريق الحقّ، وهذا هو الخيار الأخلاقي والإنساني والعلمي. على أنّ السّير في هذه الطّريق يلزمهُ قادة ورجال دولة.. هل هم موجودون حاليّا في هذا البلد؟ أعرف باليقين واحداً على الأقل لا شكّ عندي بقيادته و"رجولته". لكن، من السّهل تحميل الأمر كلّه لقائد واحد لأهداف إقليميّة واضحة.. الصّدق هو أن نطلبَ إجماعاً وطنيّاً حول ذلك، وأن ندفعَ نحو السّير به بشجاعة. لكنّ الأرجح أنّ هذا القائد (وغيره من الرّجال والقادة الصّادقين) ستتمّ محاولة إحراجه مجدّدا للقبول بصيغة "الزومبي" أو بصيغة تقسيميّة أخرى ولو مُلتوية. دعوى البراغماتيّة وحماية الأقلّيّات: "لبنانُهم هُم" دخل لوسيفِرُ المحنّكُ اللّعبة السّياسيّة والاقتصاديّة اللّبنانيّة من أبوابها العريضة، وتداخَلَ معها، فعشعشَ في تفاصيلها الضّيقة. لقد دخل أيضا، على ما أراه، في أغلب المؤسّسات الدينيّة والطّائفيّة الرّسميّة. إنّه ينادي بالكُفر الأخلاقي حيثما وصل، ويدعو إلى التّفرقة والتّقسيم بدل الوحدة. يعِد النّاس من كلّ الطّوائف بالفقر وبالبؤس وبالمصائب وبالتّهجير: ما هو الحلّ مولانا؟ الحلّ عنده هو بالخوف من الآخر وبالانعزال وبالتّقسيم. يكره الوحدة: إنّها ضدّ الأقليّات حسبما يقول.. يُقنع الأكثريّات أيضا أنّها ضدّهم، فالوحدة قد تنفي وجود أكثرية في مقابل الأقليّة من أصله. لوسيفِر هو شيخ عالم الضدّ والحجاب والخداع والغُرور، واليوم هو شيخ من مشايخ هذه الطّبقة المتحكّمة من وفي كلّ الطّوائف. ماذا نتوقّع إذن في هكذا سياق؟ أن تذهب

بنا هذه الطّبقة نحو الوحدة النّهائيّة لهذا البلد، ونحو دولة المواطنة؟ طبعاً لا. ستحاول الحفاظ على مكتسباتِها واحتكاراتِها من خلال الدّفع باتّجاه أنواع ملتوِية (غير صادقة) من التّقسيم تحفظُ مصالحَها وزعاماتِها. أقول ملتوية لأنّ هناك أنواعاً صادقة. لا يجب قمع من ينادي – بشكل علميّ – بالفيدراليّة بهدف الوصول إلى الوحدة، ولو اختلفنا معه. بعضهم صادق. في النّهاية، هناك من يقول إنّ فشلَ النّظام الحالي لا يمكن أن يستمرّ، وعلينا إيجاد حلول عصريّة: الفيدراليّة واحدة منها. لا أوافق طبعا، لكنّني ضدّ قمع هذا الرّأي من قبل رجال السّلطة لأهداف أخرى بعيدة عن العلم. لماذا لا ينادي هؤلاء بفيدراليّة مناطقيّة غير طائفيّة، وهي الأصحّ برأيي ضمن الطّرح الفدرالي؟ أوَليسَ أهلُ مكّةَ أدرى بشِعابِها؟ فهمتُ أنّه طرح الفيلسوف اللّبناني الأصل، نسيم نيكولاس طالب، وهو مفكّر كبير يتوجّب قراءته (في الاقتصاد والإدارة أكثر من السّياسة والتّاريخ بالتأكيد، حيث يشطح على الدّوام..). يمكن بحث هذه الطّروحات جميعها، لكن لا أثق في أنّ الطّبقة السّياسيّة والطائفيّة الحاليّة سوف تذهب بنا نحو درس الطروحات الجدّيّة والعميقة على اختلافها.. فعلى الأرجح، سيذهب بنا أهل الطّبقة الحاليّة في اتّجاه آخر كما أشرنا: التّقسيم و/أو الفَدرلة، لكن المقنّعَين والملتوِيَين والمموَّهَين. "لوسيفِر" وجنود الظّلام معشعشون في اللّعبة الدّاخليّة اللّبنانيّة إلى حدّ كبير ومخيف. ولن يُخرجنا من هذه الظّلمات إلّا "رجالٌ" يحبّون النّورَ ويحبّهم، ويتجلّى من خلالِهم في كلّ وقتٍ إلهي (لا وقتٍ زمني).. يعرفونَ أنّ رقيّ الإنسان هو بالسّعي نحو المحبّة والودّ والوحدة، لأنّ الله واحدٌ ولكنّ فهمنا للدّين متعدّد. لا أملَ عندنا إلّا بهذا الصّنف من رجال الله (مسيحيّين ومسلمين).. وندعو الله أن يقتنِعَ هؤلاء من رجالِه وقادة رجالِه – سريعاً – بضرورة أن نتحرّك باتّجاه بناء دولة المواطَنة الواحِدة، حفظاً لهذا البلد وحفظاً لمستقبل مواطنيه وحفظاً لقضاياهم الاستراتيجية الكبرى! ما هذا بالتّفلسُفِ ولا بالمزايدَةِ ولا بالتّعدّي على دور القادة الصّادقين، ولكنّه رجاءُ مواطنٍ صادقٍ أنشِدُ فيه: فاقبَلْ رجائيَ ليسَ الصّدقُ معصِيةً/ إنّ الصّراحةَ أُختُ الطّاعةِ المَحْضِ